



يوم الجمعة، الحادي والعشرون من تموز. احتفظوا هذا التاريخ، فإنه يوم حزين سنتذكره جيداً ونعود إليه كثيراً في الآتي من الأيام. إنه اليوم الذي بدأت فيه نهاية أحرار الشام، وفيه بدأت نهاية فيلق الشام وحركة الزنكي وبقية "الفراتات" الثورية، ونهاية إدلب، ونهاية الثورة السورية. وفيه أيضاً بدأت نهاية جبهة النصرة، وهذا هو الجزء المبهج الوحيد في المأساة.

* * *

بنهاية يوم الجمعة الحزينة أُسدل الستار على الفصل الأول من فصول المأساة التي دافعناها كثيراً وقاتلنا لكيلا نصل إليها، وارتفع الستار عن الفصل الثاني، وهو فصل أسود سيكون طويلاً ثقيلاً بالمعاناة والآلام، ثم يأتي بعده فصل آخر قصير يُسدل بعده الستار على أعظم ثورة في العصر الحديث.

حركة أحرار الشام انتهت عملياً، ماتت وبقيت مراسيم الدفن. لم تُمْتَ بسبب هزيمتها العسكرية، فهي أقوى فصيل عسكري في سوريا والأكثر انتشاراً على الأرض ومقاتلوها من خيرة المقاتلين، إنما ماتت عندما هُزمت فكريأً ونفسياً أمام العدو الوجودي الذي غفلت عنه على مر السنين، القاعدة بنسختها السابقة واللاحقة، داعش وجبهة النصرة.

لقد قتل قادة الأحرار في عناصرهم أي قدرة على مقاومة البغاء والخوارج عندما ناموا معهم في لحاف واحد، عندما سَمُّوهم إخوة وشاركوه بالجبهات والمعسكرات، عندما غذوا عقول عناصرهم بفكر القاعدة وأدخلوا إلى معسكراتهم دعاتها، المحيسني وأمثاله، ليصولوا ويجولوا وينتحوا عقول العناصر على الهيئة التي يريدون. عندما فتحوا باب سوريا وباب الثورة لمن هَبَّ ودبَّ من الغرباء بأفكارهم الغربية، فصدّروا جَهَلة قَتَلة من أمثال أبي اليقطان والفرغلي وأقصوا أفالضل علماء

البلاد، وهم كثيرون. عندما يُغى عليهم المرة بعد المرة، وفي كل مرة يُصدرون بيانات الأخوة الزائفة التافهة ويصافحون اليد الآتمة التي امتدت عليهم بالبغى والعدوان.

باختصار: لقد ضللَ قادةُ الأحرار عناصرهم وقادوهم إلى المحرقة، في الوقت الذي كانت النصرة فيه تربى عناصرها على تكفير الأحرار وكراهية الأحرار واستهداف رؤوس عناصر الأحرار عند القتال.

* * *

هذا عن الأحرار، أما الزنكي والفيلق وجيش إدلب الحر وجيش العزة والباقيون فقد وقعوا على وثائق العار والاستسلام منذ وقت طويل. كلهم نعاج، لن يطلق أحد منهم طلقة، وسوف يستسلمون للذبح مثل أصحابي العيد. إنهم الحلوى التي يلتئمها الآكلون بعد الوجبة الرئيسية، كما كان غيرُهم قبلَهم المقربات التي تُقدم قبل الوجبات.

لن يصمد إلا الصقور. قد ينتصرون في هذه الدار، وقد يؤجّل نصرهم ليوم القصاص في حضرة ملك الملوك، إلا أنني أكاد أكون واثقاً أن كلاب النار لن يحصلوا على صيد سهل في الجبل، وأنهم ستُفنى لهم دونَه قوّة كبيرة وتُرهق أرواحُ خبيثة وأرواح.

هل تعرفون قصة الثيران؟ العجيب أن الأطفال يحفظونها ويعرفون مغزاها، وأن كبار قادة الثورة لم يسمعوا بها، أو جهلوها المفزع والمعنى، أو أنهم (وهذا هو الصحيح) عرفوها وعرفوا مغزاها ولكنْ غرّتهم أنفسهم وأعمتهم أطماعهم وقادهم عُجبهم بأنفسهم وتعصّبهم لفحصائهم إلى الهلاك.

* * *

هل يمكن وقف الانهيار والانحدار إلى النهاية أم فات الأوان؟ الخبر الجيد: نعم، لو وُجدت الإرادة الصادقة.

لقد كانت حركة أحرار الشام آخرَ السدود في وجه الطوفان الفاعدي، طوفان النصرة المدمّر، فلما سقط السد لم يبقَ ما يمنع الطوفان من إغراق البلاد وإهلاك العباد، وهذا ما سيكون ما لم يرفع أهل الثورة سدوداً جديدة محلَّ ما انهار من سدود، وما لم يتداركَ مَن بقي من حملة السلاح ما يمكن تداركه من الثورة ويكونوا أوفياء للسلاح الذي حملوه فينقذوا به الثورة (أو ما بقي من الثورة) من العملاء والعاشقين، الجولاني وعصابته وأوليائه وأنصاره وأعوانه الأخيفاء والأبئنة.

لن أرُوّج تفاؤلاً كاذباً فأقول إن الأمور بخير. نحن لستنا بخير، بل نحن في شرٍّ عظيم، ولكنني لن أنشر تشاوئاً قاتلاً فأقول إن الأمل مفقود. ما تزال في الوقت فسحة، فسحة قصيرة قصيرة، لكنها موجودة.

لو جَدَ المخلصون واجتمع الأخيار مع الأخيار وثار الأحرار في الأرض التي احتلتها جبهة النصرة كما ثاروا في الأرض التي احتلها نظام الأسد، لو أيقن الجميع أن النصرة وداعش ونظام الأسد واحد، وأن الأسد والبغدادي والجولاني واحد، لو بذلنا الجهد مخلصين واجتهدنا في قلع شجرة القاعدة الخبيثة من أرضنا فسوف ننجو بأمر الله، ولو استسلمتنا فهو الفناء لا قدر الله، لا قدر الله.

* * *

يبقى السؤال الأخير: كيف انتصرت جبهة النصرة، ولماذا أقول إن نهايتها بدأت في هذا اليوم؟ الجواب في المقالة الآتية إن شاء الله.

